

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تبارك الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، ورقاه في مراتب البلاغة إلى مقام لو اجتمعت الجن والإنس على معارضته لم يقدرُوا ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . فسبحان من أوضح لنا به معالم الدين ، وأبان بمشارك أنواره مناهج الأدلة للمجتهدين . أحمد سبجانه وتعالى وأشكره ، وأستعينه وأستغفره . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، المَلِكُ الحق المبين . وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله البعوث رحمة للعالمين ، بملة حنيفية ، وشرعة قوية عليّة ، وعلى آله وأصحابه الذين عرفوا مقاصد التنزيل فخصّوه ، وأسسوا قواعده وفصلوه ، وجالت أفكارهم في آياته ، وأعملوا الجد في تحقيق مبادئه وغاياته ، وعلى من اقتفى أثرهم ، ممن لا يزالون ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم .

أما بعد ، فإن أكرم ما تمتد إليه أعناق المهم ، وأعظم ما تتنافس فيه الأمم ، العلم الذي هو حياة القلب ، وصحة اللب ؛ وأجل أصفانه وأرفعها ، وأكمل معالمة وأنعمها ، هي العلوم الشرعية ، والمعارف النبيلة . إذ فيها انتظام صلاح العباد ، واغتنام الفلاح في المعاد . وعلم التفسير ، من فهمها ، أعلاها شأنًا ، وأقواها برهانًا ، وأوثقها بنية ، وأوضحها تبيانًا . فإنه مأخذها وأساسها ، وإليه يستند اقتناصها واقتباسها ، بل هو ، كما وصف به ، رئيسها ورأسها . كيف لا وموضوعه ، وهو الكتاب المجيد ، كلية الشريعة ، وعمدة الملة ، وينبوع الحكمة ، وآية الرسالة ، ونور الأبصار والبصائر . وإنه لا طريق إلى الله سواه ، ولا نجاة بغيره ، ولا تمسك بشيء يخالفه . فلا جرم ، لزم من رام الاطلاع على كليات الشريعة الفراء ، وطمع في إدراك مقاصدها والحقاق بأهلها النجباء ، أن يتخذ مميّره وأنيسه ، ويجعله على المدى ، نظراً وعملاً ، جليسه . فيوشك أن يفوز بالبقية ، ويظفر بالطليعة ، ويمجد نفسه من السابقين ، وفي الرعيل الأول المهتدين ، ويشرق في قلبه نور الإيقان ، وتطلع في بصيرته

شمس العرفان ، ويتبوأ في الدنيا والآخرة مكاناً علياً ، وتدرج النبوة بين جنبيه وإن لم يكن نبياً .

وإني كنت حركت الهمة إلى تحصيل ما فيه من الفنون ، والاكتحال بإئتمد مطالبه لتنوير العيون ، فأكبت على النظر فيه ، وشغفت بتدبر لآلئ عقوده ودراريه . وتصفحت ما قدر لي من تفاسير السابقين ، وتعرفت ، حين درست ، ما تحللها من الفث والسمين . ورأيت كلاً ، بقدر وسمه ، حام حول مقاصده . وبمقدار طاقته ، جال في ميدان دلائله وشواهد . وبعد أن صرفت في الكشف عن حقائقه شطراً من عمرى . ووقفت على الفحص عن دقائقه قدرأ من دهرى . أردت أن أنخرط في سلك مفسريه الأكابر . قبل أن تبلى السرائر وتفتى العناصر . وأكون بخدمته موسوماً ، وفي حتمته منظوماً . فشجذت كليل العزم ، وأيقظت نائم الهمة . واستخرت الله تعالى في تقرير قواعده ، وتفسير مقاصده . في كتاب اسمه بعون الله الجليل : « محاسن التأويل » ، أودعه ما صفا من التحقيقات ، وأوشحه بمباحث هي المهمات . وأوضح فيه خزائن الأسرار . وأتقد فيه نتائج الأفكار ، وأسوق إليه فوائد التقطتها من تفاسير السلف الغابر . وفرائد عثرت عليها في غضون الدفاتر . وزوائد استنبطتها بفكرى القاصر . مما قادنى الدليل إليه . وقوى اعتمادى عليه . وسيحمد الساج في لججه ، والسائح في حججه ، ما أودعته من نفائسه الغريبة البرهان ، وأوردته من أحاديثه الصحاح والحسان ، وبدائمه الباهرة للأذهان ، فإنها لباب الباب ، ومهتدى أولى الأبواب . ولم أطل ذبول الأبحاث بفرائب التدقيقات ، بل اخترت حسن الإيجاز في حل المشكلات . اللهم إلا إذا قابلتُ فرسانَ مضمار الحق جولةً الباطلات ، فمئالك تُصَوَّبُ أسنةُ البراهين نحو نحور الشبهات .

ولا يخفى أن من القضايا المسلمة ، والمقدمات الضرورية ، أنه مهما تألق الخبير في تحبير دقائقه السميّة ، فما هو إلا كالشرح لشذرة من معانيه الظاهرة ، وكالكشف للعبة يسيرة من أنواره الباهرة ، إذ لا قدرة لأحد على استيفاء جميع ما اشتمل عليه الكتاب ، وما تضمنه من لباب الباب ، لأنه منظو على أسرار مصونة ، وجواهر حكم مكنونة ؛ لا يكشفها

بالتحقيق إلا من اجتباؤه مولاه ، ولا تبتين حقائقها إلا بالتلقى عن خيرته ومصطفاه .

هذا وقد حليت طليعته بتمهيد خطير ، في مصطلح التفسير . وهي قواعد فائقة ، وفوائد شائعة ، جعلتها مفتاحاً لمناقى بابه ، ومسلكاً لتسهيل خوض عبابه ، تعين المفسر على حقائقه ، وتطلعه على بعض أسرارهِ ودقائقهِ .

فدونك أيها الباحث عن مطالب أعلى العلوم ، التائق لأسنى نتائج الفهوم ، المتمطش إلى أحلى موارده ، المنقب عن مصادر مقاصده ، ينبوعاً لمعانى الفرقان ، وعقداً ضمّ درر التبيان ، وقَفَ بك من الطريق السابلة على الظهر ، وخطب لك عرائس الحكم ثم وهبَ لك المهر ، فقدّم قدّم عزمك فإذا أنت بحول الله قد وصلت ، وأقبل على ما قبلك منه فيها أنت قد فزت بما حصلت . وفارق وَهْدَ التقليد راقباً إلى يفاع الاستبصار ، وتسنّم أوج التحقيق في مطالع الأظار . والبس التقوى شعاراً ، والاتّصاف بالإنصاف دناراً . واجمل طلب الحق لك نحلة ، والاعتراف به لأهله ملة . ولا ترد مشرع المصيبة ، ولا تأنف من الإذعان إذا لاح وجه القضية ، أنفة ذوى النفوس المصيبة . فذلك مرعى لسوأمها وبيل ، وصدود عن سواء السبيل .

وكان شروعى في هذه النية الحميدة ، بعد استخارته تعالى أياماً عديدة ؛ في المشر الأول من شوال في الحول السادس عشر بعد الثلاثمائة وألف . نفعمنا الله بما يجرى منه على يدينا ، ولا جملهُ حجة علينا ، ونحن نستغفر الله مما تعاطيناه من الأمر العظيم ، واقتحمناه من الخطر الجسيم ، ونستعيز به من الوقوع في حبال المدوّ الرحيم ، ونسأله توفيقاً يقف بنا على جادة الاستقامة ، ويصرفنا عن عمل ما يعقبه ملام أو ندامة ، ورجو من فضله تعالى حياة طيبة وعزماً تنحط من دونه المصائب ، وعوناً على إكمال هذا المأرب تبيض به وجوه المطالب . وهداية قدسية إلى الطريقة المثلى ، وعناية لدُنْيَةِ نقوى بها على تأييد كلمة الحق الفضلى ، فهو ولى الإنعام ، في البدء والختام .